طائر الفلامنغو

جهزَّت متاعها .. حملت حقيبتها .. همَّت بالخروج حينما استوقفتها عُلبة ملونة وسط مائدة أصبحت خالية .. استخرجته من النعيم الذي كان مُترفّلا فوقه إلى الواقع الذي يضمُّ مُجبرا بين جوانبه كُلَّ الاحتمالات: لولا كونك تذكِّرني بلحظة مُرَّة لكنت أقرب الأشياء إلى قلبي .. لم تقذفه على عجل هكذا، بل جعلت تتأمّله لثوانٍ مع غُصَّةٍ وإحساسٍ بالندم حتى إذا ما شعرت باندفاع الريح .. بصوتها تُناديه وبرغبتِه في اللحاق بِركابها .. أرخت أناملها فارتمى بين أحضانها.

ظلَّت الريح تجري به من مكان إلى مكان .. لم تهدأ لساعات .. ولم يزل معلَّقا بين الأرض والسماء حتى خفَّت حدَّتها لتُلقي به وسط طريق لا رقيب فيها ولا عتيد .. قُرب جثة لقِطَّةٍ مدهوسة والمركبات عن يمين وشمال .. لا أيادٍ تتخّطفه هذه المرة ولا رياح تُنقذه .. شاحنة ضخمة تندفع بقوة نحوه مُباشرة .. يبدو أنَّه هو الآخر سيغدو دون ملامح أو معالم تُميِّزه .. سيارة شرطة تبرز من الخلف تندفع أمامها بضعف قوتها .. اندفاعها الشديد حمل منديلي إلى بَرِّ الأمان .. إلى صحراء قاحلة لا شريد فيها ولا وريد.

أيام فوق الرمضاء .. وحيدا .. منبوذا اللهم إلا من تلك الدقائق الذهبية .. ويكأنَّها لو كان باستطاعتها أن تغطِّي الأرض بلونها ما استكانت .. من حين إلى حين .. يزحف جيش صغير بمؤازرة الريح التي تمدُّه بشيءٍ منها .. يغطّي بقعة .. بقعة تلو بقعة دون كلل أو ملل .. لم يتبق منه سوى الأطراف .. لحظات قليلة ويندثر فيها كلُّ شيء .. الذكريات .. القصص التي تلوتها وقلمي لن يكون له أي نفع .. قادمٌ .. لا أعلم من أين .. عينان رماديتان ولعاب يسيل وماشية تسير خلفه .. نثر الرمال عن ظهر منديلي .. قضمه بين فكَّيه وألقاه بين يديْ سيِّده الذي لم يُلق لـه بالا ليلقيه في سلة المهملات.

حرير لامع .. نقوش نادرة .. أموال بُذلت وأيادٍ عملت بإتقانٍ و .. سلة مهملات .. كائن من كان .. مُحالٌ أن يظل كما كان .. تراكمت الأوساخ فوقه .. دُفن عميقًا .. لم يعد قادرًا على التنفّس .. وتلك الأحاسيس الجميلة .. لم يعد باستطاعتها الوصول إليه بعد الآن، فمن سيراه وحاله على هذه الحال .. لابُدَّ وينبذه ..

أتت الحاوية .. حملته والبقية .. عجنته ثم رمت به في أرض النفايات حيث كلُّ شيء هناك هالك، ففي نهاية اليوم .. لابُدَّ للمحرقة أن تشبع .. أن تؤدي عملها اليسير على أكمل وجه.

كان وشيكًا قريبًا حينما أتت الريح التي لطالما تلاعبت به .. حملته بعيدًا خارج منطقة الهلاك، ولكن إلى أين؟ إلى دهاليز مُظلمة .. إلى أزقة موحشة ملأى بالجرذان .. بالنفايات المتناثرة بالرائحة النتنة .. إلى أماكن .. منسية .. مطموسة .. لا وجود لها ولا تحمل عنوان .. احتوى منديلي وجه مُتشرِّد مُستلق على الأرض، كان يتحدَّث بصوت مسموع إلى طائر فلامنغو منحوت يتمايل بين مجموع أنامله ..

لم يعد منديلي قابلا للنقد .. للنقاش أو العرض ..

لقد فقد روعته والرموز التي جعلت منه مُتفرِّدا ..

إنه في أرضه ..

وتلك اليد الملوثة .. هي اليد الحقيقَة به ..

وبالفعل فقد خبَّأه داخل جيبه .. ثمَّ غفا لساعات وقُبيل المساء .. استقبل الزقاق امرأة بصحبة طفلتها التي لم تبلغ السادسة ورضيع بين ذراعيها .. يبدو عليها الخوف والحذر .. اختبأت في الركن البعيد حيث لا تراها الأعين .. تركها في حالها وذهب هو في حاله في الطريق ذاتها التي يسلكها كُلَّ يوم بين أجناس البشر الذين يشاهدونه كُلَّ يوم .. مُتمسِّكين بالانطباع ذاته .. الهلع .. الشفقة والاشمئزاز هم أسياد ذلك المكان وهُوَ .. مُتشرِّد عليل .. أعرج ذو وجه محترق .. لم يَستحِ أن يخرج بهذا الشكل

فليس من المعقول أن يظلَّ مُختبئًا العمر بطولـه، وما جرى لـه لا حول لـه به ولا قوة .. لقد اعتاد على نظراتهم كما اعتادوا عليه .. وكثيرا ما تُمدّ لـه أيادي الإحسان إلا أنّه .. يرفضها .. يتجاهلها أو يُهدي ما أُهدي إليه إلى شخص آخر ..

كم هو غريب هذا المُتشرِّد ..

يتصنَّع عزة النفس وهو أحوج ما يكون إلى تلك النثرات المُضيئة التي تُلقى إليه.

توجَّه إلى بُحيرة نائية عند طرف المدينة .. أخرج المنديل .. دعكه بلطف يحاول جاهدا تحريره من الأوساخ التي علقت به .. لا يزال باهتًا إلا أنَّه يبدو أفضل من ذي قبل .. توجَّه بعد ذلك نحو الجسر العظيم الذي يربط بين مدينتين يبحث عن بقايا الطعام التي يخلِّفها بعض السوّاح عادة .. إلا أنّه لم يكن هناك الكثير، فمن أتوا قبله يبدو أنهم استحوذوا على كلِّ شيء .. جلس يتأمَّل البحر الكبير حينما باغتَتْه مركبة فخمة مسرعة كانت تهمُّ بالسقوط من أعلى الجسر لولا أنها انحرفت عن مسارها لتصطدم بعمود الإنارة .. أسرع إليه إلا أن صاحب المركبة المصدومة كان الأسرع .. جعل يتلمَّس جسده .. جروح بسيطة أصابته ..حاول تشغيلها فلم تعمل .. خرج يركلها .. حطَّم زجاجها .. فعل ذلك وهو يلعن الأيام التي مضت من

حياته .. الحاضر والمستقبل الذي لم يأت بعد .. نثر الزيت عليها .. حولـه وحولها ثمَّ ولج إلى الداخل وأشعل الفتيل .. استوقفه قائلا: إن مِتَّ فلا بأس، ولكن إن لم تمت فستصبح مثلي .. مُشوهًا لن تطيق رؤية وجهك في المرآة .. خشي على نفسه فألقى بجثته خارج المركبة التي تحوَّلت بعد ثوانٍ إلى ركام يشتعل .. لا زال يريد الخلاص ولكن كيف .. توجَّه نحو الجسر .. تسلَّق أعلاه .. يكاد يقفز لولا ذلك المُتكئ بقربه من اعترض طريقه مرة أخرى .. إنّه لا يُنظر إليه .. لا يُثنيه عن رغبته .. غير عابئ به يرنو ببصره نحو الأفق البعيد: هيه .. هلا ابتعدت .. فلا أريد لأحد أن يراني أفعل ما أفعل ..

ــ سيدي عذرا .. ولكني هنا قبلك وفي هذا المكان بالتحديد .. كنت أتأملَّ البحر الكبير قبل أن تأتي .. أفتكر في حالي .. مُتشرد .. لن يجد عملا بساقه المبتورة .. حُبًّا بوجهه المحترق .. لا عائلة تضمه ولا بيت يأويه ولا أنيس يواسيه .. أسباب تدعوني إلى الموت، ولكني لا أعلم لِمَ لم يخطر هذا الخاطر في بالي حتى الآن .. ربما أنني لم أملَّ رؤية هذا البحر الكبير بعد .. سأحزن حتمًا إن أنا فارقته .. لقد وجدت ملجأً لي .. سببًا يدعوني إلى الحياة من بين كُلّ الرفات الذي يحوم حولي .. دعني في حالي وانشغل أنت في حالك فلربما لديك أسباب أقوى من أسبابي .. جلس لدقائق ثم مضى ..

ناداه من بعيد: ما اسمك .. لم يجبه .. وأخيرا حضرت فرق الإنقاذ .. الإطفاء .. الشرطة وسيارة الإسعاف .. حاولوا ثنيه عمّا هو مُقدم عليه إلا أنه تجاهلهم، يتأمل البحر الكبير .. يستمع لصوت مَوْجِه ولمّا لم ينفع معه اللين لجؤوا إلى الإرغام فاستوقفهم .. هدَّأ من روعهم .. هبط بعدها من أعلى السور .. حقّقوا معه .. داووا جراحه وبعد ساعات كانوا قد غادروا جميعا أرض الحدث.

كانت السماء تُمطر حينما وصل إلى بقعته المتواضعة .. تذكَّر العائلة الجديدة فأطل .. لم يكن هناك سواها تحتضن أخاها الرضيع ولم تكن إلا ثوان حتى هوى على الأرض إثر ضربة على رأسه كادت تُفقده وعيه .. تتالت الضربات وهو يصدُّها بجسده حتى إذا ما أشبعته ضربًا نادت صغيرتها: هيا أسرعي قبل أن ينهض، فالمكان لم يعد آمنًا ..

ــ انتظري .. وأشار بيده: تلك العلبة الكرتونية هي بيتي .. قادني فضولي لمعرفة إن كنتم قد رحلتم أم لا ليس إلا، ثمَّ زحف مُتوجعًا نحو مسكنه.

استيقظ مُبكرا وكعادته جعل يتحدَّث إلى تمثاله الخشبي .. يُفضي له بمكنونات صدره .. بهمومه وغمومه إلا أنَّ همهمات عكَّرت عليه صفو

حديثه .. جعلته ينهض .. تقدَّم حذرًا .. إنها تشتكي إلى الأم جوعها والأم تطلب منها الصمت كي لا يُفتضح أمرها ..

ــ مِمَّ أنتِ خائفة؟

اختبأت الصغيرة خلف أمِّها التي ذُعرت لمشهدٍ رأته .. مسخ يتَّكأ على عكازين .. إنها المرة الأولى التي يريانِه بها على حقيقته فالظلام كان دامسًا حينها .. لم تُجبه في الحال إلا أنَّ صرخة سُمعت إثر جرذ سمين كان يحوم قريبًا من طفلتها من أطلقت الصرخة جعلها تنطق ببضع كلمات .. أسرع إليه .. طعنه بعكازه ثمَّ التفت إليها: لا تجيبي .. لا بأس .. ولكنه ليس بالمكان المناسب لك ولعائلتك .. انتقلي إلى مسكني .. إنه أكثر نظافة وأشدَّ أمنًا من هنا .. هيا .. ماذا تنتظرين؟

وهناك اندفعت الصغيرة نحو بقايا الطعام المُخبَّأ داخل كيس بلاستيكي .. اختطفه من يديْها فاختطفته من يده: إنه ليس طعاما صالحا للأكل ..

ــ الطفلة بجرأة مُتناسية أمر ذُعرها منه في سبيل لُقمة تملأ جوفها: ولكنك تأكله ..

ــ لقد اعتدت عليه .. اختطفه ثانية مُبعدا إياه: ألديكِ مال لشراء طعام جيِّد؟

ـــ لا ..

كان باستطاعته مدُّ يده للحصول على المال بسرعة وقد حاول إلا أنه سرعان ما تراجع .. توجَّه نحو المتجر .. توقَّف أمامه لدقائق ثمَّ دلف إلى الداخل .. ملأ سلَّته ببعض الحاجيات ثمَّ سأل المُحاسب الذي كان مُرتعبا مُرتابا مثل البقية: كم الحساب؟

ـــ ستون دولارًا ..

ـــ اسمع .. أنا الآن .. لا أملك هذا المبلغ ولكني أعدك .. بعد يومين سأسدِّده كاملا، فهّلا انتظرت؟

ـــ .....

ـــ يومان فقط ..

ـــ اممممم تعلم .. أنا مجرد عامل .. لست صاحب المكان ..

ـــ أعلم، ولكنها ليست لي .. إنها لأُناس في حاجة ماسّة إليها ..

ـــ أعتذر .. ولكنّها سياسة المحل ..

ـــ صمتٌ بشرر يتطاير من عيْنيْه: قُل لي .. هل ولجت إلى متجرك يوما .. هل أزعجتك .. هل سرقت منك شيئًا .. ألا أقابلك كل يوم بابتسامة .. آه .. أصبت .. ابتسامتي ليست خلابة .. وخصري ليس نحيلا .. كما أنّه .. بيني وبينك .. شكلي لا يوحي بالثقة .. لست من أولئك .. ذكرني بهم ..

امم .. نعم .. ذوو الأطقم السوداء .. الساعات الأنيقة .. البطاقات الزرقاء أو الشارات الذهبية .. ولكن أتعلم .. سواء وثقت بي أم لا .. لا يهم .. فتلك الحاجيات يجب أن تصل إلى محتاجيها بغض النظر عن شعورك .. وسواء رضيت أم أبيت .. بعد يومين سآتي لأسدِّد المبلغ كاملا .. حمل الحاجيات ليتفاجأ بالشرطة تحاصر المكان وتهدِّده .. التفت إليه .. كان يشير بإصبعه إليه: لست أنا من طلبهم .. من المُؤكد أنَّه شخص آخر فأنا أثق بك .. صدقني ..

ــ بصوت مُستنكر يلوم: ألم تسمع .. إنها ليست لي .. ليست لي .. إنها لأُناس في حاجة ماسّة إليها وقبل أن يضع حِمله جانبًا تقدَّمت سيدة مُسنة نوعًا ما .. دفعت عنه .. رجته أن يُبعد الشرطة .. فلمّا تأكدت من رحيلهم قدَّمت لـه بطاقة وطلبت منه أن يذهب إلى أحد الملاجئ، فهي تقدِّم المساعدة بالمجان: ما اسمك سيدتي؟

ــ اسمي مدوَّن أعلى البطاقة.

تناولوا الطعام وبعد أن خلدت الصغيرة إلى الراحة جلس يتحدَّث معها لبعض الوقت .. أخبرته قصتها كاملة: أنا غريبة عن هذه الديار .. هاربة من زوجي الذي يبيع أطفالي للمشاهير الذين يغدقون عليه بالجزيل من المال لقاء ذلك ..

ـ مُستغربًا مُقطِّبًا حاجبيْه ..

ـ نعم .. لا تستغرب ذلك فذلك صحيح ..

ـ ولكن .. لِمَ سَمِحتِ له بذلك؟

ـ تنهَّدت من ثمَّ أجابت: لأني .... سمحت له بذلك .. كان على وشك الدخول إلى السجن إلى أمد بعيد .. لقد كنت ساذجة .. خشيت ألا أراه فمنحته طفلي .. في المرة الثانية .. كان قد ظهر على حقيقته .. جشعا يتآكله الطمع فاغتصبه مني اغتصابا .. وفي الثالثة لم أتحمَّل فهربت ..

ـ وماذا عن أهلك؟

ـ كما قلت لك .. فأنا غريبة عن هذه الديار كما أن أهلي أُناس متواضعون جِدًّا لا طاقة لهم به وقد أصبح ذا نفوذ الآن ..

ـ أخبري الشرطة إذن ..

ـ وماذا بعد ذلك .. القضاء والمحاكم التي ستمنحه حق الحضانة كاملا، فكما ترى أصبحت كالمتشردة .. لا عمل ولا مأوى ..

ـ هنا دفع إليها بالبطاقة التي حصل عليها مُؤخرا: إنها ملاجئ عامة تقدم المساعدة بالمجان ..

ـ لابُد وأنَّه سيبحث في كُلِّ مكان ..خصوصا وأنَّ عليه تسليم الطفل بعد أيام ..

ـ ماذا ستفعلين؟

ـ لا أملك سوى الهرب والانتقال من مكانٍ إلى مكان ..

ـ ولكنك بحاجة إلى رعاية صحية وطعام جيد ..

ـ لابأس .. سأتدبَّر أمري ..

ـ كان بودي مساعدتك .. ولكن كما ترين فحالي لا تسرُّ الناظرين ..

ـ لا عليك .. لقد فعلت الكثير .. شكرا وأعتذر عمّا بدر مني ..

ومع هذا فلا يزال الشعور بالحسرة والعجز يؤنِّبه.

ـ هيه استيقظ ..

ـ من أنت؟

ـ أنا من تركته يتأمَّل البحر الكبير ثم رحلت ..

ـ ألم تمت بعد ..

ـ لا .. لم أمت بعد .. لقد وجدت سببا يدعوني إلى الحياة ..

ـ وما هو؟

ـ إنه أنت .. لقد أنقذتني وحان دوري لإنقاذك .. سأصنع منك رجلا جديدا .. لقد أصبحت صديقي الآن ..

ـ شكرا .. ولكني مُرتاح هكذا وأستطيع تدبُّر أمري ..

ــ على من تكذب .. لست أعمى وكذاك أنت .. انظر حولك وسترى بأنك تعيش الكذبة كل يوم مع إيمان كامل بأنها الجنة التي يسعى إليها الكُل .. هيا قُم .. فجدولي مزدحم .. عليَّ أن أذهب إلى البنك لأسحب بعض الكاش من ثَمَّ سنتوجه نحو المتجر ثُمَّ الفندق وأماكن أخرى كثيرة .. هيا .. لا تعطِّلني ..

ــ وإن طلبت منك الرحيل وتركي ..

ــ حتمًا سأعود .. مرة أُخرى وأُخرى وأُخرى .. أنت دافعي للبقاء على قيد الحياة فكيف لي ألا أعود ..

ــ حسنا إذن .. إن كُنت أنا هذا الدافع .. فافعل بي ما تريد صديقي .. نهضا معًا .. استأذنها باصطحاب الصغيرة معه – والتي كانت قد اعتادت عليه كثيرا في الأيام القليلة التي مضت – لبعض الوقت فقبلت مع توخي الحذر .. وعند آلة السحب توقّفوا جميعا .. وشوش في أذنها كلمات .. وما إن أخرج ألفي دولار حتى رفعها إليه يحزُّ رقبتها بسكين كانت بحوزته: سلِّمها النقود حالا ..

ــ ماذا تفعل .. إنها لأجلك .. خُذها وافعل بها ما تريد ..

ــ كفاك حديثًا ابتعد وإلا سال دمها .. تجمهر الناس حولهم كما أحاط بهم شرطة البنك ..

سلَّمها المبلغ كاملا .. ابتعد بها نحو منفذ خالٍ .. عضَّت يده على حين غفلة منه وهربت بالنقود .. تركها شاهرًا السلاح في وجه الكُل .. الناس .. الشرطة وصاحبه الذي تعرَّف عليه للتَّو .. سرعان ما استسلم .. قبضوا عليه .. جرّوه إلى داخل المركبة وقبل ذلك أتى قد ثارت ثورته .. مسكه من تلابيبه: أيها الأحمق .. لِمَ فعلت ذلك؟ لقد وثقت بك ..

فما كان من أمره إلا أنه .. ابتسم له.

بعد ثلاثة أشهر استلم صاحبه المغدور به صندوقًا به رسالة كان فحواها:

((مرحبا .. ها نحن نلتقي مجددا ..

سألتني يوما .. أيها الأحمق .. لم فعلت ذلك؟

كنت عزيز نفس ذات يوم .. ذا عائلة .. ذا مكانة وسمعة طيبة .. ثم جرى لي ما جرى (لا داعي لذكر التفاصيل) .. وقد كان لي أصدقاء كثر .. جيدون ومخلصون إلا أني تخليت عنهم خشية أن أرى ما أخشاه في أعينهم .. وإن حاولوا جاهدين .. إلا أنه يبقى شيء منها في الداخل ..

أنت الآن صديقي .. ولأني فعلت ما فعلت ..

كي لا أرى نظرة الإشفاق في عينيك ..

كي لا أشفق على حالي فأشعر بالألم ..

بالألم الذي لم أُعد أشعر به مذ رضيت بقدري وقنِعت ..

قلت لك أستطيع تدبُّر أمري وقد فعلت ..

ما حدث كان خطة مرتبة بيني وبينها .. أن تهرب بالمال الذي هي في حاجة إليه .. وأن أبتعد عنك قدر الإمكان ..

ملاحظة: بالإضافة إلى هذه الرسالة ستجد منحوتا خشبيا هو أغلى ما لدي بل هو جلُّ ما أملك .. هو الذكرى المتبقية لأيام جميلة مضت .. ما كنت لأبيعه بأي ثمن إلا أني مضطر لإعطائك إياه مقابل ما استعرته منك من مال ..

ملاحظة أخرى: إن أخبروك أن سبب وفاتي هو المرض العضال الذي كنت أصارعه فلا تصدِّقهم .. إنه بسبب الطعام الجيد الجديد الذي لم أعتد تناوله ..

صديقي .. لا تستعجل الموت فهو قادم لا محالة ..

اعتن بنفسك وابحث عن أسباب أخرى تدعوك إلى الحياة غيري .. فكما ترى .. لقد رحلت ..

صديقك المخلص / المتشرِّد))

أيها الأحمق .. ومن قال بأني أُشفق عليك ..

بل أنا .. من يستحق الشفقة ..